العرب
الأربعاء 2020/02/19
السنة 42 العدد 11622

الروائيون والمعماريون يواجهون قذائف الحرب وجرافات السلام

الأدب إذا لمس المدن يحولها إلى أيقونات حية

المدينة ليست عمارة وحسب لكنها مجازات أيضا (لوحة للفنان نجيب بالخوجة)

ليست المدن بنايات مادية فقط، بل هي أيضا بنايات غير مادية، إنها ذروة التحضر التي تصقلها المجتمعات دائما وترعاها بالترميم والإضافة وغيرهما، ولذا فإن انهيار المدن هو انهيار جهد حضاري كامل، انهيار ثقافة وتاريخ وجماليات وحكايات وأثر بشري. لذا يواجه الفن انهيار المدن ببنائها دائما واستخراجها من حالتها الواقعية إلى حالاتها الأيقونية. هذا مثلا ما عرفته باريس في رسومات وكتابات كثيرة.

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

حين كتب الروائي المغربي محمد خيرالدين روايته الأولى "أغادير"، استهدف تركيب ملامح مدينة هدّها الزلزال سنة 1960، كانت ثمة تلال من أنقاض عمارات ودور قضى أهلها، وانتصبت بقايا الجدران المشروخة، والأتربة، والروائح العفنة للجثث المتفسخة في شوارع المدينة المنكوبة.

> المعماري يحول الخيال إلى واقع، بينما يحول الكاتب الواقع باختلاف عناصره البشرية والمادية إلى خيال

كان ما حدث زلزالا رهيبا محا معالم المدينة، ثم لحقه خراب إنساني بعد نهب ما تبقى منها، من قبل آفاقيين وافدين لسلب ما تحت الأنقاض.

مدن في الروايات

عبر التاريخ ظلت الزلازل والحروب والفيضانات هي التي تعيد تقليب مصائر التوق العمراني إلى المدن، وتخطط انزياحاتها وارتكاساتها وقطائعها؛ أغادير بعد الزلزال، وبرلين بعد اجتياح الحلفاء، وبغداد بعد حرب الخليج الثانية، وبيروت بعد الحرب الأهلية، ثم الموصل وحلب ومدن عربية عديدة اليوم، لعل هذا الخراب هو ما يدفع الروائي إلى الوقوف ضد الحرب، وضد العودة إلى بدايات تائهة.

في الرواية نعثر على تفاصيل أمكنة، شوارع ومقاه وعمارات وحدائق ودور سينما ومكتبات وبارات ومطاعم، كانت ذات يوم تنبض بالحياة قبل أن يخلدها السرد والشخوص المتخيلة، لتغدو تدريجيا مدنا متخيلة، تنتمي إلى ذاكرة وزمن وطراز عمران، وإلى ذوق وقيم اجتماعية، ونمط عيش، واقتصاد مالي، ليست "سان بترسبورغ" المنبثقة من روايات دوستيوفسكي، التي هي ليلينغراد زمن الثورة والحرب العالمية الثانية، والحصار الخرافي، ولا هي المدينة التي استعادت اسمها الأول بعد لفظ التجربة الشيوعية، هي طبقات مدن استوطنت الروايات، وانتصبت كتخطيطات روائية للذاكرة، لا تلوح إلا أطيافها اليوم.

في رسالة لإميل زولا إلى صحيفة "لوسيمافور" بمرسيليا، حول ما جرى في الأسبوع الدامي من حصار "كومونة باريس" سنة 1871، يقول "هذه المقاومة اليائسة، هذا القصف البشع لباريس، وحين يضيع الوطن، يشكل من وجهة نظري، أكبر الجرائم التي لا يزال يرتكبها أولئك البائسون الذين يوسخون المدينة منذ شهرين، في أي حال لن يتأخر سقوط مونمارتر... على التمرد أن يُسحق في مهده. وحين يُمحى هذا الحي المنفر بضربات المدفعية، ستكون هناك حفنة من الباريسيين من تبكي عليه... هو ضروري بشكل مطلق من أجل خلاص باريس".

ولا يمكن أن نقرأ رسائل إميل زولا تلك، المناهضة لخراب باريس، بما هي دليل على معاداة الروائي، رائد الموجة الطبيعية، للروح الثورية، هو الذي لم يزعم يوما أنه ثوري، كان يتحدث بضمير الباريسي الحريص على روح عمارة عصية على التكرار أو الاستنساخ، ويرى في خرابها انهيارا لذاكرة رمزية، تتخطى منطق الصراع السياسي حول المناطق، لهذا كان الحي الحاضن لما تبقى من الكومونة الباريسية الثورية، جديرا بالمحو إن كان ذلك سيعصم العاصمة من الخراب.

خلد إميل زولا باريس كما لم يخلدها كاتب من معاصريه، كان ينقل الطبقات اللاحسية إلى العمران، المنطوي على ألغاز مسترسلة، وكشأن أغلب واقعيي رواية القرن التاسع عشر في فرنسا، يهندس النص عبر تلافيف العمران المديني، أسماء شوارع وأزقة، وساحات، وكاتدرائيات، ومصانع، ومحلات تجارية، وجسور، ودور سكنية، تطل كلها عبر تفاصيل بشرية ومسارات حياتية وتحولات وقائع، إنها الغاية التمثيلية ذاتها التي سعت إليها روايات ما بعد الانتفاضات العربية، حيث تنهض المدن الروائية لتستعيد المحى والمنذور للغياب، من الرقة إلى الموصل ومن حلب إلى عدن. وقبلها بسنوات كانت روايات الحرب الأهلية في لبنان تعيد تشكيل خارطة بيروت المنزاحة إلى اليباب.

المعماري والكاتب

قبل أربع سنوات احتضن متحف "سرسق" في بيروت حوارا نظمه "المركز العربي للعمارة" و"بيت الكتب"، بين الروائي إلياس خوري والمهندس جاد ثابت، نشر مادته فواز طرابلسي ضمن أحد أعداد مجلة "بدايات".

دار الحوار عن المدينة المدمرة وتاريخها الذي طمرته الحرب قبل أن تمحوه جرافات السلام، كان لحظة من لحظات المقاومة التي اصطف فيها المعماريون والروائيون معا في جبهة واحدة لاستعادة بيروت من مشروع إنشاء مدينة نقيضة هندسها الرأسمال المتوحش، بعد أن مهدت الحرب الأهلية الطريق إليها.

وكان الحوار بمثابة بديل عن المدينة المتلاشية حيث استعاد الكلام الذكريات والأسماء والصور التي انتفت إلى الأبد، وبات التذكير بما ترمز إليه من روح ومعنى لحظة جديدة في صراع مسترسل.

ومن ضمن فقرات ذلك الحوار نقف على مقطع لإياس خوري يختصر كل شيء. يقول "نحن نعيش في عالم ملموس رسمه خيال مهندس، وفي هذا العالم، سواء أكان بيتا أم مقهى أم شارعا، نحوّل هذا الواقع إلى متخيل تصنعه أحلامنا. المعماري يحوّل الخيال واقعا، بينما يقوم الكاتب بتحويل الواقع بعناصره البشرية والمادية إلى خيال. عملان يفترقان في الهدف لكنهما يلتقيان عند نقطة يتقاطع فيها المتخيل بالمتخيل، بحيث تصير العمارة كتابا نعيش بين سطوره، وتصير الرواية عمارة نعيش بين أبطالها الذين يصبحون حقيقيين في وعينا".

غياب صاحب الغرفة الأكثر شهرة في دمشق

نضال قوشحة
كاتب سوري

دمشق – بعد مسيرة طويلة في عالم الأدب والسينما رحل بندر عبدالحميد ابن قرية تل صفوك من ريف منطقة الحسكة شرق سوريا.

تعلم بندر القراءة على يدي شقيقه قبل أن يدخل المدرسة، ثم رحل إلى دمشق ليدرس في كلية الآداب قسم اللغة العربية ويتخرج منها. اتسمت شخصيته بالهدوء المبالغ فيه، فكان قارئا نهما وعاشقا مجنونا، حتى أنه رسب عمدا لسنتين متتاليتين أثناء دراسته الجامعية، لكونه أحب زميلة له كانت تصغره بعامين حتى يصيرا في صف واحد.

بدأ خطواته الأدبية في مجال الشعر وفيه أطلق مجموعته الأولى "كالغزالة كصوت الماء والريح" عام 1974، كما نشر روايته الوحيدة "الطاحونة السوداء" عام 1984، وكان آخر ما نشره كتاب "ساحرات السينما، فن وحب وحرية" عام 2019 عن دار المدى.

سافر الشاعر إلى هنغاريا فترة ليدرس الصحافة، وفيها شاهد كل الأفلام العربية الممنوعة من العرض لأسباب سياسية وفكرية، وفي هذه الفترة نضج وعيه السياسي والسينمائي إلى درجة بعيدة، وظهرت لديه ملامح الهاجس السينمائي الذي طغى عنده لاحقا وبات أبرز وجه له. ما خوله ليشارك لاحقا في العشرات من المهرجانات السينمائية العربية العالمية كمحكم في مسابقاتها.

عاد بندر عبدالحميد إلى دمشق ليبدأ رحلته مع الكتابة الأدبية والفنية، وتخصص في النقد السينمائي الذي كتب فيه عشرات المقالات في الإعلام السوري والعربي. وعمل مطولا في المؤسسة العامة للسينما، وكان فيها أحد مؤسسي مجلة الحياة السينمائية مع صلاح دهني وسعيد مراد ورفيق أتاسي عام 1979 وهي مجلة فصلية تعنى بالمادة البحثية والخبرية السينمائية وصارت إحدى أيقونات المجلات السينمائية العربية، وبقي حتى تقاعده من العمل مديرا لتحريرها.

كما كان المؤسس لسلسلة الفن السابع التي تصدر عن مؤسسة السينما والتي انطلقت عام 1978 وما زالت تصدر حتى الآن، نشرت خلالها مئات من الدراسات والأبحاث السينمائية المختلفة لكتاب سينمائيين عرب وعالميين. عمل في الصحافة العربية. فكان مسؤولا عن تحرير مجلة نزوى الشهيرة، كما عمل مطولا مسؤول نشر في دار المدى العراقية بدمشق، وهي الدار التي نشر فيها إلى جانب كتب السينما، دراسات أدبية وشعرية عديدة كانت منها دراسة شهيرة عن الترجمات العربية لرباعيات الخيام عن اللغة الفارسية للشاعر عمر الخيام.

كان مكتب بندر عبدالحميد الصغير الذي يقع في شارع الباكستان في وسط دمشق، محجا للسينمائيين العرب والسوريين، ففيه وخاصة أيام مهرجان دمشق السينمائي، يلتقي المبدعون العرب والإعلاميون والنقاد والمهتمون لكي يتبادلوا أحاديثهم في الفن والسياسة وحتى الطعام والمغامرات والشراب.

في وسط صالة المكتب طاولة خشبية كبيرة مستديرة كان يحرص على أن يحتفظ لكل زائر بصورة صغيرة له يضعها تحت زجاجها كنوع من الذكرى. في هذا المكتب كان يبقى بعض الضيوف العرب لساعات طوال، فتحول إلى نزلهم الذي اعتادوا عليه، ثم إن مطعم إسكندرون ملاصق له وبقية المحال في الجوار.

في هذا المكتب اجتمعت قامات فنية ونقدية عربية وسورية كبرى من أمثال كمال رمزي، أنور قوادري، موفق قات، بسام الذوادي، علي فرزت، هيثم حقي، عدنان مدانات، قيس الزبيدي، كوليت بهنا، علي سفر... وكثيرون آخرون. ولطالما كان المكتب عنوانا للصحافيين الجدد الذين كانوا يزورونه لكي ينهلوا بعض النصائح المهنية.

في كتابه "سينمائيون بلا حدود" الذي نشر بطبعتين سورية ومصرية يورد معلومات وشواهد عن بعض المخرجين العالميين الذين قدموا للسينما العالمية إنجازات فاقت حدود بلادهم فكانوا منارات سينمائية عالمية استطاعت أن توجد مدارس سينمائية خاصة بها أمثال ألفريد هيتشكوك وروبير بريسون وإيليا كازان وواورسون ويلز ووغيرهم.

وفي كتابه الأخير "ساحرات السينما. فن وحب وحرية" حقق بندر عبدالحميد عن مئة وخمس وأربعين نجمة سينمائية عالمية من عدة جنسيات وفترات زمنية مختلفة، اختارهن من بين الآلاف من ممثلات السينما العالميات اللواتي سجل لهن بعض الأقوال في السينما حيث تقول النجمة السينمائية رومي شنايدر فيه "أنا في الحياة لا شيء وفي السينما كل شيء"، أما النجمة ميرنا لوي فتقول "ستكون الحياة مثل السينما"، وللنجمة العالمية أودري هيبورن قول مأثور أورده في الكتاب "كل ما تعلمته كان من السينما".

ونذكر أن بندر عبدالحميد ولد في الحسكة عام 1947، وهو عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق وعضو جمعية الشعر ومدير تحرير مجلة الحياة السينمائية.

شاعر صادق غالبية المثقفين والمبدعين

الإيسيسكو تؤسس لرؤية استشرافية

الرباط – اختتمت مساء أمس الثلاثاء بالرباط أعمال "منتدى الإيسيسكو للمستقبل"، الذي استمرت فعالياته بالعاصمة المغربية لمدة يومين.

وانتظمت في اليوم الأول من المنتدى أربع جلسات جاءت الأولى بعنوان "الاستشراف في أفق 2040"، فيما دارت الجلسة الثانية حول "محو الأمية في المستقبل"، وناقشت الثالثة "وضع الذكاء الاصطناعي في منظوره الصحيح"، وتناولت رابعة الجلسات "مستقبل العلوم".

أما في اليوم الثاني للمنتدى، الثلاثاء، فقد جرى تنظيم 6 ورشات عمل استراتيجية في أفق 2040، تناولت الورشة الأولى "التربية: التوجهات الكبرى"، والثانية "الثقافة: ضرورة الحوار بين الثقافات"، والثالثة "العلوم: تحديات المستقبل"، أما الرابعة فبحثت في مسألة "الذكاء الاصطناعي: نحو تكنولوجيا أخلاقية في خدمة المجتمع"، والخامسة "العلوم الإنسانية والاجتماعية: التطور والاستشراف"، وختاما بالورشة السادسة حول "مختبر محو الأمية في المستقبل".

وشاركت 27 شخصية من أبرز خبراء الاستشراف الاستراتيجي والذكاء الاصطناعي حول العالم، في المنتدى المنظم من طرف الـ"إيسيسكو".

وقال سالم بن محمد المالك، المدير العام لمنظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) إن "عدم استشراف المستقبل من طرف الدول الإسلامية يمكن أن يقضي على آمالها في اللحاق بركب الدول المتقدمة".

وأضاف المالك "إذا لم نستشرف المستقبل فسنحشر أنفسنا في زوايا الماضي، ونقضي على آمالنا في اللحاق بركب الدول المتقدمة، التي بنت تقدمها على نتائج الدراسات الاستشرافية، ووضعت استراتيجياتها وفق فكر الاستشراف".

وبحسب المدير العام للإيسيسكو فإن "استشراف المستقبل أفضل سبيل للحفاظ على المكتسبات الإنسانية وتطويرها".

منتدى المستقبل
الإيسيسكو-الرباط
17-18 فبراير 2020
مقر الإيسيسكو، الرباط - المملكة المغربية

> المنتدى يأتي ضمن رؤية الإيسيسكو الجديدة، التي تتبنى استشراف المستقبل والتعامل مع التحولات

وأردف "أثبتت الدراسات المتخصصة أن تقدم الشعوب وازدهار الحضارات لا يتسنيان إلا بالنظر والتفكير العلمي في مستقبلها".

وأوضح أن "الاستشراف لا يعني انتظار التغيير للتفاعل مع ما سيحدث، وإنما هو التحكم في التغيير المنتظر، والتفاعل الاستباقي البناء لإثارة التغيير المأمول".

وجاء تنظيم المنتدى في إطار رؤية الإيسيسكو الجديدة، التي تتبنى استشراف المستقبل والتعامل مع التحولات والتحديات التي تواجه دول العالم الإسلامي.